المقتطف

الجزء الخامس من المجلد السابع والعشرين

١ مايو (ايار) سنة ١٩٠٢ — الموافق ٢٢ محرم سنة ١٣٢٠

خرائب الشام

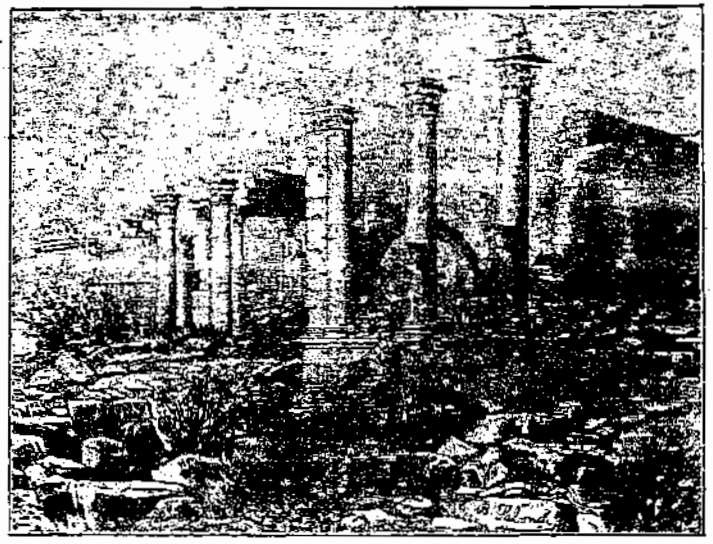

(٢) قنوات

قال لنا اديب كان المقتطف ينشر بالامس المقالات الضافية عن عمران دمشق فلم يكد يأتي على آخرها حتى شرعتم تنشرون المقالات عن خرائب الشام كلها فما اسرع هذا الانقلاب. والظاهر ان القائل لم يقرأ مقالات العمران ولو قرأها لرأى انها ومقالات الخرائب من باب واحد لان اكثر ما فيها وصف للخراب الذي حل بعاصمة الشام وما حولها من الارباض لا لعمران

نشأ فيها وانتشر منها . وكيف تعمر بلاد كان سكانها بين عشرة ملايين وعشرين مليوناً وهم لا يبلغون الآن مليونين . وكان اولئك الملايين يعيشون بالسعة والرخاء والمليونان اضطرّ كثيرون منهم ان ينتشروا في الخافقين طلباً للرزق وبلادهم كانت تقري اضعاف اضعافهم . ولكن

ستمضي مع الايام كلُّ غريبةٍ وتحدث ايّام تسيّ المعايبا

هذا ولنعد الى الكلام على خرائب الشام فنقول: ذكرنا في الجزء الماضي خرائب جرش من المدن العشر التي كانت شرقي الاردن ونحن ذاكرون الآن خرائب قنوات وهي مدينة اخرى من تلك المدائن وقد اخترنا ان ننقل وصفها عمّا كتبهُ الدكتور القس بورتر في كتابهِ المعروف بمدن باشان العظمة Giant Cities of Bashan لانهُ ابلغ ما قرأناهُ في هذا الموضوع قال

بلغنا اكمة تطلُّ على قنوات فرأينا عن اليسار وادياً عميقاً وعلى جانبهِ الغربي خرائب المدينة القديمة وسورها يتبع الشواهق مسافة ميل ثم ينعطف متعرّجاً فيكتنف ارضاً عرضها نصف ميل فيها القصور والهياكل والكنائس والمشاهد وما ماثلها من المباني الفخيمة قائمة بعضها بازاء بعض على نسق بديع يدهش الابصار . ووراء السور في اسفل الوادي وعلى الجبال المحيطة بهِ في القنن الشاهقة وبين حراج البلوط اعمدة رفيعة وابراج مشيدة ومدافن عالية

جاء في سفر العدد (من اسفار موسى الخمسة) انهُ لما كان بنو اسرائيل شرقي الاردن " ذهب نوبح واخذ قناة وقراها ودعاها نوبح باسمهِ " هذه هي قناة نفسها سماها اليونان قناثا والعرب قنوات بلغت اوج مجدها في عهد الرومان وكانت من اعظم المدن شرقي الاردن ثم لما انتشرت الديانة المسيحية تنصّر اهلها وحوّلوا هياكلها كنائس لكنها خربت بعد الفتح الاسلامي وقُتل سكانها او هجروها فلم يعنَ المسلمون بجعل كنائسها مساجد كما فعلوا في غيرها من مدن الشام

مضى يومنا وجانب من اليوم التالي ونحن ننتقل من خرابة الى خرابة فرأينا ان الجانب الاعلى من المدينة كان لعلية سكانها هناك قصر فخيم وثلاثة هياكل وميدان لسباق الخيل مزدان بكثير من التماثيل . لم ارَ في مدينة أُخرى من مدن فلسطين تماثيل قدر ما رأيتُ في هذه المدينة لكنها كلها مشوّهة او مقطعة الاوصال وبينها تماثيل اسود وفهود وكلاب ورأيت هناك رأساً عظيماً للالهة عشتاروث امام هيكل صغير والهلال فوق جبينها ومن ثمَّ سميت بعشتاروث قرنايم اي ذات القرنين. جاء في سفر التكوين ان ملوك المشرق ضربوا الرفائيين في عشتاروث قرنايم فلعلهم ضربوهم في هذه المدينة عينها. وامام القصر ساحة فسيحة تحتها مصهرج كبير سقفهُ معقود كانت المياه تجري اليهِ بقناة منحوتة في جانب الوادي فيجتمع فيهِ منها ما يكفي المدينة فصل الصيف

وغربي المدينة على ربع ميل منها هيكل جميل يحيط بهِ رواق من العمد الكورنثية وهو

قائم على اكمة صناعية وقد سقط اكثر هذه الاعمدة وتصدَّعت جدران الهيكل ولكن بقي منها ومنهُ ما يكفي للدلالة على عظمتهِ السابقة

وبكَّرنا في الصباح ونزلنا بطن الوادي لنرى ما فيهِ من الخرائب وصعدنا على شاهق مرتفع في الجانب الآخر منهُ فرأينا هناك برجًا مستديرًا وآثار سور كبير وظهر لنا كأن بطن الوادي كان رياضًا ومتنزهات لاننا رأينا فيهِ المماشي المدرَّجة والسواقي المنسقة وكراسي التماثيل وهيكلاً صغيرًا ومشهدًا سادجًا مقاعدهُ منحوتة في الصخر وفوق دكتهِ كتابة يونانية كبيرة الحروف يقال فيها ان مرقص لوسياس بناهُ على نفقتهِ ووهبهُ لابناء وطنهِ . ويصعد من هذا المشهد بسلم منحوت في الصخر الى البرج المستدير فصعدنا اليهِ ورأينا ما وفى بتعبنا وقياسنا الباكر وهو ضخم الحجارة قديم البناء لم يبقَ منهُ الاَّ ما ارتفاعهُ عشرون قدمًا وعلى مقربة منهُ بقايا قصر مبني بحجارة كبيرة منحوتة واغلاق ابوابهِ وكواهُ من الحجر كلها وهي كثيرة النقش عليها اكاليل بازرة من الازهار والاثمار . لكن الذي ادهشنا ليس القصر وما فيهِ بل منظر البلاد الذي شاهدناهُ منهُ . جلستُ على حجر هناك واجلتُ طرفي في ما ارى امامي فاذا هو من ابدع ما وقعت عليهِ عيني . وقفت على قنن لبنان وشاهدت من كثير منها مشاهد اعظم من هذا وارهب وعلى رأس قلعة تدمر فرأيت تحتي من الخرائب والاطلال والانقاض مالا مثيل لهُ ههنا في العظمة والفخامة . وتطلعت من اعلى جدران هيكل الشمس في بعلبك فرأيت ادلَّة اعظم من هذه على مقدرة الانسان ومهارتهِ ولكنني لم ارَ قبل الآن مكانًا رصَّعتهُ الطبيعة والصناعة ووشاهُ التخريب والتدمير بثوب اجمل من هذا او يضاهيهِ

ما هو شواهق لبنان وقننهُ المعممة بالثلج ولاهيا كل بعلبك وجدرانها الضخمة الحجارة واعمدتها التي تناطح السحاب ولااطلال تدمر وما فيها من الصفَّاح والعمد المتراكمة في ذلك القفر الاجرد بل هو تلال ووهاد وحراج وادغال وشواهق وصوامع واطلال دوارس نبتت عليها الطحالب وتعرشت بها اللبالب وحولها بلوط باشان مخضر الورق ملتف الافنان . كل ما رأيتهُ قبل الآن من خرائب الشام مدفون في التراب او مطروح على الدمَن وهو على انتساق اساطينهِ وجمال تيجانها وزخرفة افاريزهِ وتفرُّع افنانها لا يقابل باديرة بلاد الانكليز وقلاع نهر الرين من حيث الوضع الطبيعي ولكن الامر على غير ذلك بين تلال باشان فان نضارة الاشجار تغطي صدوع المباني وتظهر جمال بنيانها وعسالج اللبلاب تطوق اعناق العمدان وتكلل هامات تيجانها . انتهى

وحسبنا الصورة التي في صدر هذه النبذة وهذا الوصف للدلالة على ما كانت عليهِ مدن الشام وماصارت اليهِ في هذه الايام